خصوصيـة القـراءة الصوفية للنص النحوي

د. أحمد درويش[1]

1-تمهيد:

قديما أشاد العلماء المسلمون بقيمة المتلقي، ومكانته الأساس في عملية التواصل، إذ نعتبر حديثهم عن الفهم والإفهام إشارة صريحة إلى معرفتهم بدروه –أي المتلقي- في توجيه موضوع الرسالة، وفحوى نص الناص، « فمدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الفهم والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك، والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم »[2]، لأنه صاحب النص، إليه يُنسب فضل الإبانة، وطرق المعاني، وترتيب الألفاظ.

لسنا في مقام تحديد مكانة النظم إن كانت للفظ أو المعاني، فذاك له مجاله، بل نحن نتبين من نص الجاحظ أعلاه، إدراكه الفذ لدور المتلقي في تحقيق الغاية من التواصل، فالنص أعلاه، وغيره من النصوص التراثية[3] تظهر أن « المتلقي عنصر فاعل في إنجاح التواصل أو إفشاله بحسن الاستماع أو عدمه »[4] وهو أيضا المتحكم في إنجاز القول، وتأليف الكلام، إذ يجب على المرسل/الناص أن يراعي أحوال المتلقي.

قد يقال في شرط مراعاة أحوال المتلقي أنّه يلتزم في النصوص الأدبية التي تحمل مسحة الذاتية والجمالية، أو النفعية الواقعية، لكن ماذا عن النصوص العلمية التي تدل على قواعد كلية لصنعة من الصنائع، أو علم من العلوم؟ فهل للمتلقي حق المشاركة فيها بإعادة البناء مادام « فعل القراءة يضخ في نسيج النص حياة جديدة...»[5]؟ طبعا سيكون الجواب حتما: لا، لتميّز طبيعة مثل هذه النصوص، لكن ماذا لو وقع ذلك؟ في هذه الحال يستحق هذا القارئ سمة الخصوصية.

---

[1]- قسم اللغة العربية وآدابها. جامعة ابن خلدون – تيارت. الجزائر.

[2]- البيان والتبيين: عمر بن بحر الجاحظ. تح: علي أبو ملحم. دار الهلال لبنان ط1 1988. ج1 ص34.

[3]- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: أحمد بن فارس. تح: عمر فاروق الدقاق. مكتبة المعارف لبنان ط1 1933 ص196.

[4]- سلطة اللغة بين فعلي التأليف والتلقي: خديجة غفيري. دار إفريقيا شرق المغرب د.ط 2012 ص203.

[5]- النص والاجتهاد في الفكر الأصولي. من تقديس النقل إلى تسريح العقل: بثينة الجلاصي. دار رؤيا للنشر ط1 2011. ص11.

2-عوامل خصوصية القراءة الصوفية للنص النحوي:

يتبدى من عنوان هذا المقال الجزم بخصوصية تلقي الصوفيين وتفرد قراءتهم للنص النحوي، ولذلك أسباب وعوامل يمكن جمعها في عنصر طبيعة التجربة الصوفية إن على مستوى المعارف، أو على مستوى لغة التعبير.

أ-طبيعة التجربة الصوفية:

أثبتت البحوث والقراءات التي درست السلوك الصوفي تميز المعرفة الصوفية عن بقية المعارف، فإذا كان الغرض من النظر في الظواهر هو تحديد الماهيات، وتقنين السيرورات بمعرفة آليات العمل، وتقصّي المكونات، باتخاذ أدلة البرهان والقياس أدوات عمل، فإن المعرفة الصوفية « تستهدف الوصول إلى تصور المطلق من خلال تجلياته، وتأصيل أصول معرفته، ووضع القواعد النظرية والسلوكية على كل رغبة في الاتصال به، أو السفر إليه »[6]. وشتان بين علم يحدد موضوعه يسبر أغواره، وبين سلوك أو علم يتخذ من المطلق مراما يريد بلوغه.

إن التصوف مجاهدة وسلوك، يسعى فيه السالك إلى العلم بالله وصفاته، ورؤية أسرار كونه، ولهذا سخّر الصوفيون مدونات علوم مختلفة، ومزجوا بينها، إذ نجد الفقه والتوحيد إلى جانب السيَّر والفلسفة، وأخبار المشاهير كالعشاق مثلا، وفي كل تقوم الرؤية الصوفية على « أساس التجربة النفسية الفردانية الخالصة، التي لا يتم فيها الاهتمام بالنسقية المنطقية كما هو الحال في المذاهب الفلسفية، والكلامية، والفقهية»[7]، لقولهم بالفناء في أصل الكون وحقيقته، حيث تزول مظاهر الفصل والفرق بين الأشياء.

ومن مظاهر تميز التجربة الصوفية، ترفّعها عن إمكانية التعبير، « لأن مشاهدات القلوب، ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، بل تعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال، وحل تلك المقامات »[8]. فالخواطر الصوفية لا تتأتّى إلا لمن تجاوز علوم التعلم والاكتساب، كالمعرفة بالأحكام الشرعية، والعمل بها في إصلاح النفس وتهذيبها، فهي، أي الخواطر، تتجاوز الخبرة الإنسانية العادية التي يستطيع أيّ منّا الحديث فيها، بحسب درجة إلمامه بها.

وبناء على هذا، عُدّ التصوف علما خاصًّا، تفرّدت به جماعة مخصوصة، إذ كلما مالت المعارف إلى الانحصار على فئة محدودة، ضاق أفقها، وقلّت درجة الإقبال عليها ومقبوليتها، « فالعلم إما أن يكون عاما متلقى بالقبول من الجميع، بما فيه من حقائق مجمع عليها، وإما أن

---

[6]- أدبية النص الصوفي بين الإبلاغ النفعي والإبداع الفني. محمد زايد. –دار عالم الكتب الحديث الأردن ط1 2011 ص11.

[7]- أدبية النص الصوفي ص15 و11.

[8]- التعرف لمذهب أهل التصوف: أبو بكر محمد الكلاباذي. تح: محمود أمين النواوي. المكتبة الأزهرية للتراث ط2 1992 ص103.

يكون يعبّر عن اهتمام فئة معينة تشعر بذلك »[9]، فينحصر الخطاب بينها، كالخطاب العلمي التعليمي المتداول بين أهل الاختصاص.

أما علم الإشارة –بتعبير الكلاباذي- فقد سعى أصحابه إلى محاولة تعميمه، بتناولهم قضايا اعتقادية وسلوكية، يشترك فيها الجميع، مما جعلهم يتصادمون مع فئات أخرى سياسية، ودينية، واجتماعية، فقد بلغت حدّة التصادم إلى درجة التكفير والحكم بالقتل، كمأساة الحلاج مثلا، وما إلى ذلك إلا لتفرد هذه التجربة على مستويي المفاهيم والتعابير، ذلك التفرد الذي أدّى إلى وجود عجز في القناة التواصلية بين الباث (الصوفي)، والمتلقي، إذ « الإشارة لا ترتبط بالقناة، بقدر ما ترتبط بالباثّ وقصده»[10]، ومن هنا اشترطوا في الفهم والتعرف، التجربة ومنازلة الأحوال[11].

ب-طبيعة التعبير الصوفي:

تسببت طبيعة المعارف الصوفية وتميزها في عجز القناة التواصلية عن حملها، وبالتالي قلّ تقبل المتلقي لها، وإقباله عليها « فاستراتيجية النص الصوفي تختلف عن النصوص الأخرى، فالنص الصوفي يركز على رؤية المعاني الثابتة من خلال جوانب روحية...»[12] عرفانية ذوقية، مسخّرا لذلك وسائل تعبيرية خاصة جعلت من الكتابة الصوفية « كتابة تخييلية ذات أثر فعال لم يوجد له مثيل في أية كتابة أخرى»[13]، ويمكن تعليل هذا بأسباب أهمها:

أ-تصادم أفكارهم بالسلطات النافذة في المجتمع –سياسية ودينية- جعلتهم لا يسعون إلى إقامة قنوات تواصل عادية مع الغير، تقول آمنة بلعلي: « لا نتصور أن يتخيل المتصوفة متلقيا عاما في ذلك الوقت وتؤكد أحاديثهم عن الإشارة، وأهل الإشارة، والخاصة، والستر، والكتم، ذلك التوجيه الذي ينمّ عن عدم سعيهم إلى إقامة تواصل مع الآخر...»[14]، لأن معرفتهم بالله، وبالأحكام الشرعية، وأسرار الكون مباينة للمعرفة الاعتيادية عند الناس.

ب-نظرا لتميز معانيهم ومعارفهم عن بقية التجارب، حيث قالوا بلحظات الكشف والتجلي، أين يمتنع الزمان والمكان والقول، احتاجت لغتهم إلى أقصى حدود التكثيف الدلالي؛ إذ « النص لا ينقل حياتية التجربة الصوفية ككل، بل يقوم بعملية استنساخ للصورة، وبثها

---

[9]- دينامية النص، تنظير وإنجاز: محمد مفتاح. المركز الثقافي العربي ط2 1990.

[10]- الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين: آمنة بلعلي. اتحاد الكتاب العرب سوريا د.ط 2001 ص56.

[11]- ينظر التعرف ص103، وأدبية النص الصوفي ص15.

[12]- نقد/تصوف، النص، الخطاب، التفكيك: شريف هزاع شريف. دار الانتشار العربي لبنان ط1 2008 ص50.

[13]- صناعة الكتابة عند العرب: عبد الحميد جيدة. دار العلوم العربية لبنان ط1 1998 ص173.

[14]- الحركة التواصلية ص29.

من خلال اللغة كنص صوفي يقوم بتوزيع تجربته على خريطة النص»[15]، وعملية الاستنساخ هي محاولة مراجعة للحظات الشهود التي تفوق قدرة الدلالات الوضعية للألفاظ، لأن « التعبير عن بُعد الحضور هذا، لا يتم إلا بعد صحو الجمع»[16] حيث ينزل السالك من مرحلة وجوده للحق إلى وجوده في الخلق؛ أي بعد صحوه.

إن القول بتفرد المعارف الصوفية، وتميزها عن بقية المعارف المتوصل إليها بالحس والبرهان، والقول بخصوصية المعجم الاصطلاحي، لا يعني خروج هذه التجربة عن الأسس الدينية المشروعة، بل على العكس من ذلك، فالنص الصوفي « يقع تحت تأثير المنظومة الدينية بشكل مطّرد، لكنه يقع في الوقت نفسه تحت تأثير الثوابت والمتغيرات، ثوابت الشريعة، ومتغيرات اللغة...»[17] التي تتكيف ومستجدات المعاني الذوقية، وهنا يحقّ التساؤل لم التوجه إلى النص النحوي؟

3-التصوف والنص النحوي:

كثيرة هي الدراسات التي أكدت دينية أسس السلوك الصوفي، سواء في ذلك أرباب الذوق المنظرون كالإمام القشيري (465 هـ) الذي قال: « إن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد... ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة»[18]، أم النقاد الدارسون كمحمد مفتاح مثلا الذي بيّن أن القرآن الكريم والحديث، وأقوال حجج الإسلام كالغزالي هي أهم المصادر النصية[19] للمعارف الصوفية.

إن اعتماد السلوك الصوفي على القرآن والسنّة مراجع تشريع أمر طبيعي، مادام العرفان الذوقي تجربة شعورية لا بد لها من أحكام تقننها، وفي هذا إعلان من أرباب الذوق على شرعية عروجهم الروحي، وهو أيضا لأجل تخفيف حدّة ردّة فعل الآخر على تفرد مذاهبهم، وتميز أقوالهم، لكن ماذا عن توجههم للنص الصوفي؟

من المتفق عليه أن التأويل « هو الآلية المعرفية التي شغلها الصوفية لإنتاج هذه الرؤية الفريدة بكل تجلياتها السلوكية والنفسية والأدبية »[20]، وهذا لا يعني انحصار هذا الإجراء الدراسي عليهم فقط، بل اشتغل عليه وبه كثير من أصحاب المذاهب الدينية المختلفة، إلا أن تجربة الصوفيين والتأويل متميزة تميز معارفهم وفهمهم لأحكام الشرع ونصوص القرآن.

---

[15]- نقد/تصوف ص35.

[16]- شعر أبي مدين التلمساني، الرؤيا والتشكيل: حبار مختار. اتحاد الكتاب العرب سوريا د.ط 2002 ص71. وانظر نقد/تصوف ص35.

[17]- نقد/تصوف: 14.

[18]- الرسالة القشيرية: عبد الكريم بن هوزان القشيري. إع خليل منصور. دار الكتب العلمية لبنان ط1 1998.ص11.

[19]- ينظر دينامية النص ص 131-132 و نقد/تصوف ص 48-49 و74.

[20]- أدبية النص الصوفي ص21.

إن لجوء الصوفيين إلى التأويل مشروع ما دامت بواعثه متحققة في هذا النوع من السلوك، تلك البواعث التي حصرها محمد مفتاح « في مقولتين، أولاهما غرابة المعنى عن القيم السائدة، القيم الثقافية والسياسية والفكرية، وثانيهما بث قيم جديدة بتأويل جديد، أي إرجاع الغرابة إلى الألفة، ودسّ الغرابة في الألفة »[21]، وأكثر ما تتجلى ثنائية الغرابة والألفة في النص النحوي، الذي نرى في تأويلهم له أسبابا هي:

أ-سعي الصوفيين لتأكيد انفتاح تجربتهم على معارف المجتمع وعلومه، فالذوق لم يعد محصورا في مفاهيم الزهد في الدنيا، والإقبال على تذوق أحكام الدين بل استطاعوا أن ينفوا عنهم تهمة افتقارهم النصي والعقلي، وبانفتاحهم ذاك حققوا نوعا من التوازن داخل منظومتهم المعرفية، وتمكنوا من « أن ينجزوا المشروع الإصلاحي للإنسان من خلال التزكية الحقيقية للجسد ثم للنفس ثم للعقل ثم للروح...»،[22] وبهذا تمكّنوا من فرض الاعتراف بالنص الصوفي، والمعارف الذوقية ضمن المنظومة الأدبية والفكرية لثقافة الأمة.

ب-ميل الصوفيين إلى تأويل النص النحوي يعود إلى طبيعة مكونات هذا النص، فهو مجموعة « قوانين مستنبطة من استقراء كلام العرب »[23] والقرآن والحديث مجموعة أحكام تدرج الصوفيون في فهمها من الظاهر إلى الباطن[24]، ولذا نقلوا هذا الفهم إلى تذوقهم للنص النحوي باعتباره هو الآخر أحكاما وقوانين، وسنرى كيفية ذلك في حينه.

ج-قيمة الذكر في دستور الصوفيين، فهو « ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر»[25]، ولما كان ذكر اللسان وسيلة استدامة ذكر القلب، عنى الصوفيون بتذوق النص النحوي الذي يتشكل من مجموعة الضوابط والقوانين المتحكمة في تأليف الكلام وضبطه.

4-آليات تأويل النص النحوي:

قبل معرفة آليات تأويل الصوفيين للنّص النّحوي، لا بد من التنبيه على مميزات هذا النص، لأن ذلك سيسهل عملية تبيين وشرح كيفية تذوق الصوفيين لمثل هذه النصوص العلمية، لكن ما هي المنطلقات المنهجية التي جعلتنا نحكم على تلك القوانين بأنها نص؟

---

[21]- التلقي والتأويل: محمد مفتاح. المركز الثقافي العربي المغرب ط2 2001 ص217.

[22]- نقد/تصوف ص124.

[23]- الاقتراح في علم أصول النحو: جلال الدين السيوطي. تح: محمد حسن اسماعيل الشافعي. دار الكتب العلمية لبنان ط1 1998. ص15.

[24]- ينظر أدبية النص الصوفي ص23.

[25]- الرسالة القشيرية ص256.

أ-الحمولة المعرفية التي تحتوي عليها تلك القوانين، والتي هي جزء من مكونات ثقافة المجتمع، فالنص النحوي يبتعد عن الأدبية والفنية وما تتطلبه نمطية النص الجمالي، لكنه شديد الارتباط بلغة/ثقافة الأمة، فالنص « هو بالأساس نص الثقافة (le texte de la culture) ، ومن ثمة فإنه يشكل جزءا من نظامها، ويكشف عن آلياتها الداخلية، ومظاهرها المختلفة في كل أبعادها »[26] ما دامت الثقافة ليست خزانا للمعلومات، بقدر ما هي آليات تشتغل بواسطة الرمز والمعارف كما يقول 'زوليكفسكي' أحد رواد الابحاث السيوسيوتاريخية.

ب-إمكانية انفتاح النص النحوي، مما يعني قابليته للتأويل، وتنويع القراءة « انطلاقا من مرجعيات المتلقي السوسيوثقافية، ومرجعياته الإدراكية »[27]، كما يتجلى في قراءة الصوفيين له، كالقشيري في كتابيه "نحو القلوب الكبير" و "نحو القلوب الصغير"، وكابن عجيبة (1264 هـ) في كتابه "الفتوحات القدسية في شرح الأجرومية".

لقد نظّر القدامى لعلم النحو وجعلوه صناعة « أي العلم الحاصل بالتمرّن »[28] وشرح المحدثون كلمة "الصناعة" وجعلوها مرادفا « للعلم المضبوط»[29]، الذي حُدّدت خصائصه في الموضوعية، والشمولية، والتماسك، والاقتصاد، وتبنّى كل خصيصة من هذه الخصائص الأربع على شرطين فرعيين، فالموضوعية تتحقق بالاستقراء الناقص وضبط النتائج، والشمول شرطاه الحتمية وتجريد الثوابت، والتماسك شرطاه عدم التناقض والتصنيف، أما خصيصة الاقتصاد فتبنى على الاستغناء بالأصناف عن المفردات، وشرط التقعيد[30].

إن المقام لا يسمح بشرح كل خصيصة على حدة، لكن يجب التنبيه على أن هذه الخصائص لا تنفصل عن بعضها البعض، بل هي متكاملة متداخلة، إذ صحة النتائج مرتبطة بانطباقها على الأجزاء المستقرأة استقراء ناقصا، ومن هنا يتحتم انطباق تلك النتائج على ما لم يستقرأ في نطاق موضوع الدرس، وبهذا يتمكن من تجريد القواعد الثابتة من الظواهر الجزئية المتغيرة.

كما يشترط في القواعد الثابتة عدم التناقض، إذ لا تطعن فكرة في فكرة أخرى، وبهذا تتحقق إمكانية التصنيف والتجريد العالم الذي « لولاه ما أمكنت السيطرة على المفردات، ولا

---

[26]- النص والاجتهاد ص10.

[27]- م.ن ص11.

[28]- فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح: محمد بن الطيب الفاسي. تح: محمود يوسف فجال. دار البحوث للدراسات الإسلامية إ.ع.م ط2 2002. ج1 ص218.

[29]- الأصول: دراسة ابستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي. تمام حسان –دار الثقافة المغرب ط1 1981 ص19.

[30]- النظرية اللغوية في التراث العربي: محمد عبد العزيز عبد الدايم. دار السلام مصر ط1 2006.ص23-26. والأصول ص14-19.

قامت حياة علمية من أي نوع»[31]؛ حيث يندرج في كل صنف مفردات، كاندراج العلم والنبات والجماد في صنف الاسم، وبتناول الأصناف دون المفردات تتحقق خصيصة الاقتصاد، ويسهل الشرط الثاني وهو التقعيد، لأن القاعدة القصيرة المكونة من بضع كلمات تغني عن مقالات طوال تعتمد التعداد للظواهر الجزئية.

ومن العرض أعلاه، يفهم سر انغلاق النص النحوي، وانضباطه، ولهذا قالوا في تحديده بعنصر "التمرن" فهو « قواعد مقررة، وأدلة محررة»[32]، يؤدي اكتساب آلياتها إلى تحقيق النتائج الحتمية التي لا دخل للفرديات فيها، ولهذا قالوا في مكونات تعريف النحو بسمة « وجد العالم بها أم لا»[33].

ومنه أيضا تفهم أسباب الاعتراض التي قد يبديها بعض المعترضين على كون القوانين النحوية نصّا كبقية النصوص، ومنه أيضا يفهم قولنا بالخصوصية في تلقى الصوفيين لهذه القوانين، فرغم الانضباط إلا أنهم فتحوها كما سيجلى في أشكال التأويل ومظاهره.

5-مظاهر الخصوصية في تلقي الصوفيين للنص النحوي:

إذا أردنا إجمال القول في المعرفة الصوفية يمكن الزعم أنها « رؤيا جديدة للكون، وحلم دائم للوجود، و[الكتابة فيها] خالية من أية محاكاة، لأنها مخترعة لها تعابير جديدة...»[34] تعكس جدة الأفكار وتميزها، حيث فردانية العروج، وذاتية الرؤى، وكثرة التحول، وتشعب الأحوال وتفرع المقامات، والانفتاح وعدم الخضوع لقوانين العادة والاعتياد المعروفة في هذا العالم، وهذا ما سينطبق على تعاملهم مع النص النحوي.

سمة: الحس ←المعنوي. (يقرأ السهم ب: "ينقل إلى ").

من المتفق عليه أن القوانين النحوية جزء من مكونات الكفاية اللغوية لأي متكلم مستمع مثالي في البيئة اللغوية، وإذا كانت تلك القوانين ذهنية مجردة، فإنها متعلقة بالكلام المحسوس، فهي مستقرأة منه مستخلصة لأجله، والكلام « اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها»[35] كما يقول النحاة. ويبدو أن اللفظ قُيد بلفظ "المفيد"، وهذا يعني وجود لفظ غير مفيد، لأنه عُرّف بكونه « الصوت المشتمل على بعض الحروف»[36]، وهذا ما يلتقي والتعريف

---

[31]- الأصول ص16.

[32]- فيض الانشراح ج1 ص218.

[33]- الاقتراح في علم أصول النحو: جلال الدين السيوطي.تح:محمد حسن اسماعيل الشافعي.دار الكتب العلمية.لبنان. ط1 -1998 –ص13

[34]- صناعة الكتابة ص174.

[35]- شرح ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله بن عقيل د.م د.ط د.ت ج1 ص11.

[36]- شرح قطر الندى وبل الصدى: جمال الدين بن هشام. تح: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الفكر د.ط د.ت. ص13.

المعجمي لمادة "لفظ" التي تعني « طرح الشيء وغالب ذلك أن يكون من الفم»[37] مما يؤكد سمة الحسية في الملفوظ: سمع/رؤية، ويستحق الملفوظ سمة الكلام إذا دلت ألفاظه، وأفادت تراكيبه و تآلفت.

ومنه جاز القول في النحو بأنه علم يقصد به سلامة القول من اللحن، وبالتالي سلامة أداء الأغراض، فهو إذا يتجه إلى تقنين محسوس ما دام موضوعه تأليف الألفاظ، لكن هذا الموضوع يتجه إلى الباطن في قراءة الصوفيين وتحديدهم لماهية هذا العلم، فهو –أي النحو- عند القشيري (465 ه) « القصد إلى حميد القول بالقلب، وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب»[38] لأن المخاطبة بلسان القلب علامة التخلص من أسر الدنيا وما فيها، بالسعي إلى شهود المعبود.

ومن مظاهر الاتجاه من حسية العبارة إلى إيحاءات الإشارة ترديده لمصطلح "الإشارة" بعد ذكر قواعد التعبير الحسي، ففي باب المعرفة والنكرة مثلا يقول: « الأسماء على ضربين، اسم معرفة، واسم نكرة، وفي الإشارة الخلق كذلك، فمن صاحب معرفة، ومن صاحب نكرة، ولكل حدّ ووصف»[39]، وغير هذا كثير[40].

يمكن تعليل ما ذكر أعلاه، بنقلهم لحقيقة النحو من قوانين فعل القول الحسي إلى قواعد سلوك النفس، وحالات عروجها إلى المطلق، ذلك العروج، أو تلك التجربة الذوقية التي لا يمكن التعبير عنها بالعبارة العادية ذات الدلالة الوضعية في الحس والعقل والعادة، بل تعرف بالمنازلات والمواجيد العرفانية، في هذا قال القشيري ناظما في حقيقة نحو القلوب[41].

هذا هو النحو لا ما قد قال عثمان حسب

لحن اللسان مباح واللحن بالقلب ذنب

وأقبح اللحن عندي كبر وتيه وعجب.

2- سمة: مغلق ← مفتوح:

من سمات القانون النحوي الانغلاق، أي تحدد المعنى لتحدد الأجزاء التي ينطبق عليها وتعيينها، مما وحّد مستويات التلقي لهذا النص، فالمعرب معلوم بتغير آخره عند كل قارئ،

---

[37]- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس. تح: عبد السلام هارون. دار الجيل لبنان د.ط 1999.ج5 ص259 مادة (ل ف ظ).

[38]- نحو القلوب الكبير: عبد الكريم القشيري تح: أمير خرنوب دار الرؤية سوريا ط1 2006.ص18.

[39]- م.ن ص28-29.

[40]- ينظر م.ن ص 25، 30، 31، 34، 35.

[41]- م.ن ص50.

والمبني معروف بثبات أواخر الكلم، ونفس الكلام يسري على قوانين بقية الأبواب، باعتبارها بعيدة عن الذاتية كما بينت سلفا في هذه الدراسة.

أما التجربة الصوفية فهي عرفانية ذوقية[42]، ولهذا تميزت بالانفتاح على مستوى دلالات اللفظ وإيحاءات المعاني، ومن هنا تنوعت مستويات الرحلة ومستويات التعبير، « إذ يختلف النص الصوفي من متصوف لآخر، قياسا لعمق التجربة أو درجتها، فالأقدم انتسابا في التصوف، والتزاما بقواعده، أكثر عمقا، وتنوعا في النص...»[43] لأنه أكثر انفتاحا على العوالم الباطنية وحالات الشهود من غيره.

ولعل هذه المعطيات النظرية هي التي جعلت الإمام القشيري يفتح القواعد النحوية في كتابه "نحو القلوب"، ويخرجها من انغلاقها بواسطة التأويل تماشيا مع مراحل العروج، وصفات أربابه، ويتجلى هذا في كل أبواب الكتاب، ونخص للتمثيل باب علامات الإعراب، الذي وبعد ذكره للعلامات الأربع الرفع، والنصب، والخفض، والجزم. يقول في الرفع:

أ-الرفع: «[1] قد يكون بأن ترفع قلبك عن الدنيا، وهو نعت الزهاد.

[2] قد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشهوات والمنى وهو نعت العباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد.

[3] قد يكون بأن ترفع قلبك عنك، وتعتقد أنه لا يجئ منك شيء، وهذا نعت أصحاب الانكسار، وأرباب الخضوع والافتقار.

[4] وقد يكون برفع القلب إلى الحق، وتصفيته عن شهود الخلق...»[44]

ب-الجزم: «ويكون بحذف العلائق والسكون تحت جريان أحكام الحقيقة من غير إخلال بشيء من آداب الشريعة.

ويكون جزم القلوب قطعها عن خطرات المنى، لأن الأماني والمعاني متضادة فيقطع أعناق المطالبات والإرادات بسيوف اليأس»[45] لأنهم يعرّفون العبودية بترك الاختيار...وأن لا تسأل غيره حاجة[46].

---

[42] - نقد/تصوف ص6، 74 و 210.

[43] - م.ن ص62.

[44] - نحو القلوب ص22.

[45] - م.ن ص24.

[46] - ينظر الرسالة القشيرية ص223-224.

إن الرفع لم يعد ذاك الباب الذي يسري على حالات قولية محددة ميّزها النحاة باسم المرفوعات، بل أصبح باب الرفع مفتوحا يتأبى الحصر، إذ كل درجة لها حالات واستثناءات، يعسر معها التحديد والضبط بدلالة الصيغة الظنية "قد يكون"، وهذا موافق والتجربة الصوفية حيث الانتقال من مرحلة الخلق الأول إلى مرحلة الحق حيث الجمع والشهود فالعودة إلى مرتبة الخلق الثاني[47]، وبين كل مرحلة ومرحلة بواده ومنازل مما يجعل إمكانية التنظير والتحديد صعبة التحقيق لكثرة التحول.

إن مظاهر التأويل الصوفي للقاعدة أو للنص النحوي كثيرة منها مظهر الانتقال من الثبات إلى التحول، ومن المقيد إلى المطلق، وغير ذلك مما يطيل حجم البحث، ويكثر تفريعاته التي يمكن أن تستقل ببحث آخر في المستقبل. لكن الذي يجب التأكيد عليه هو أن قراءة القشيري للنص النحوي شاكلت قراءات النحاة وصنيعهم في هذا العلم حيث الاهتمام بالمتن والشواهد.

6-قيمة الشاهد في نحو القلوب:

بني النص النحوي على ثلاثة أمور هي: القاعدة الذهنية المستنبطة والشاهد النحوي، والمصطلح بقواعد صياغته وتأليفه، وسبب لجوء النحاة إلى ربط القاعدة بالشاهد هو رغبتهم في تأكيد صحة منهجهم بسرد القاعدة الذهنية مع أنموذج الأداء الفعلي في الواقع اللغوي.

أما نحو القلوب، كما يتجلى عند القشيري، فالشاهد سيق لأجل تقرير معارف الطريق، ومقامات السلوك، فانظر إلى قوله في باب المفعول به: «كذلك الخلق هم المفعولون، فلهم حالة العجز والنقص لأنهم في أسر القدرة وتصريف القبضة وقيل:

فاصبر لمرّ العناء فقد خلقت ممرّ القضاء »[48]

وقبل ذكر ميزات شاهد نحو القلوب، يجدر ذكر مصادره التي تنحصر في القرآن والسنة وأقوال حجج الإسلام[49] شعرا ونثرا، وهي بهذا لا تختلف ومصادر السماع عند النحاة، إلا في المصدر الأخير، فالنحاة اشترطوا الفصاحة وعنصري الزمان والمكان في ما يستشهد به، والصوفيون أخذوا بأقوال أرباب الذوق وعلمائه، إذ الجامع بين هؤلاء وأولئك هو المعرفة، الفصحاء أعلم بضروب القول، وعلماء الصوفية أعرف ببواطن الذوق وخفاياه.

---

[47]- ينظر شعر أبي مدين التلمساني ص25.

[48]- نحو القلوب ص11.

[49]- ينظر دينامية النص ص131.

ومما يتميز به الشاهد في نحو القلوب عدم انحصار شهادته في جزء من مباني الشاهد، لتأكيد صحة القاعدة، أو فساد الرأي، كقول النحاة بجواز حذف حرف الجر إذا أمن اللبس كقولهم في[50]:

تمرّون الديار ولم تعوجوا...

مادام المعنى واضحا، تمرون على الديار.

وكذلك اختلافهم في إمكانية وصف المعرّف ب(أل) الجنسية بالجملة في قول الشاعر[51]

وقد أمر على اللئيم يسبّني فمضيت ثمّت قلت لا يعنيني.

حيث قال البعض ك"ابن هشام" بجواز كون جملة "يسبّني" صفة ل(اللئيم) لأنه معرّف ب"أل" الجنسية القريبة من النكرة، بينما قال "ابن عقيل" بكونها حالا ،طردا لعمل القاعدة النحوية :الجمل بعد المعارف أحوال دون تمييز بينها.

أما الشاهد في نحو القلوب فيتميز بكونه حجة على صحة المعارف الصوفية وسلامة الذوق والتذوق، ولهذا انفتحت شهادته، وبنيت على معرفة معنى كل البيت أو المقطوعة، أو فهم الغاية من القول أو القصة الحجاجية، ولم تنحصر في جزئية المباني كما في نحو العبارة الحسية، فبعد إيراد علامات إعراب جمع المذكر السالم، وتغييراتها بين الواو والياء، وإثبات النون بعدها أو حذفها في حالة الإضافة، يذكر القشيري قصة "الشبلي" وقوله في حال التلون والتغير[52]:

فيومًا ترانا في الحرير نجرّه ويومًا ترانا في الحديد عوابسا

ويومًا ترانا والثريد نلتّه ويوما ترانا نأكل الخبز يابسا

فوجه الشهادة في البيتين مستفادة من معرفة معناهما، حيث التأكيد على عدم ثبات الحال، وليست لها أية علاقة بجزئيات المبنى، لأن نحو القلوب غايته تحقيق سلامة لسان القلب في مشاهدة الحق، أي سلامة الطريق، وسلامة العروج، وسلامة التذوق، بينما نحو العبارة غايته سلامة القول الحسي.

وبهذا النهج في تأويل العلوم المتعارف عليها، استطاع الصوفيون الخروج من دائرة العلوم الدينية إلى العلوم الأخرى كالفلسفة والنحو، مكونين بذلك مدرسة أقل ما يقال فيها

---

[50]- شرح ابن عقيل ج1 ص538.

[51]- ينظر شرح ابن عقيل ج2 ص196.

[52]- نحو القلوب ص32.

تميز منهج النظر عندها، وثراء طريقة التناول والبحث، مما جعل إمكانية مقابلة مدرسة العرفان لمدرسة البيان ممكنة.

مصادر ومراجع:

أدبية النص الصوفي بين الإبلاغ النفعي والإبداع الفني. محمد زايد. –دار عالم الكتب الحديث الأردن ط1 2011.

الأصول: دراسة ابستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي. تمام حسان –دار الثقافة المغرب ط1 1981.

الاقتراح في علم أصول النحو: جلال الدين السيوطي. تح: محمد حسن اسماعيل الشافعي. دار الكتب العلمية لبنان ط1 1998.

البيان والتبيين: عمر بن بحر الجاحظ. تح: علي أبو ملحم. دار الهلال لبنان ط1 1988.

التعرف لمذهب أهل التصوف: أبو بكر محمد الكلابادي. تح: محمود أمين النواوي. المكتبة الأزهرية للتراث ط3 1992.

التلقي والتأويل: محمد مفتاح. المركز الثقافي العربي المغرب ط2 2001.

الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين: آمنة بلعلي. اتحاد الكتاب العرب سوريا د.ط 2001.

دينامية النص، تنظير وإنجاز: محمد مفتاح. المركز الثقافي العربي ط2 1990.

الرسالة القشيرية: عبد الكريم بن هوزان القشيري. إع خليل منصور. دار الكتب العلمية لبنان ط1 1998.

سلطة اللغة بين فعلي التأليف والتلقي: خديجة غفيري. دار إفريقيا شرق المغرب د.ط 2012.

شرح ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله بن عقيل د.م د.ط د.ت

شرح قطر الندى وبل الصدى: جمال الدين بن هشام. تح: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الفكر د.ط د.ت.

شعر أبي مدين التلمساني، الرؤيا والتشكيل: حبار مختار. اتحاد الكتاب العرب سوريا د.ط 2002.

الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: أحمد بن فارس. تح: عمر فاروق الدقاق. مكتبة المعارف لبنان ط1 1933.

صناعة الكتابة عند العرب: عبد الحميد جيدة. دار العلوم العربية لبنان ط1 1998.

فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح: محمد بن الطيب الفاسي. تح: محمود يوسف فجال. دار البحوث للدراسات الإسلامية إ.ع.م ط2 2002.

معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس. تح: عبد السلام هارون. دار الجيل لبنان د.ط 1999.

نحو القلوب الكبير: عبد الكريم القشيري تق: أمير خرنوب دار الرؤية سوريا ط1 2006.

النص والاجتهاد في الفكر الأصولي. من تقديس النقل إلى تسريح العقل: بثينة الجلاصي. دار رؤيا للنشر ط1 2011.

النظرية اللغوية في التراث العربي: محمد عبد العزيز عبد الدايم. دار السلام مصر ط1 2006.

نقد/تصوف، النص، الخطاب، التفكيك: شريف هزاع شريف. دار الانتشار العربي لبنان ط1 2008.